

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٠ - سورة المعارج

وتسمى سورة « سَأَلَ سَائِلٌ » . وهي مكية . وآياتها أربع وأربعون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)

[٢] (لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ)

[٣] (مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ)

« سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ » قال مجاهد: أى دعا داعٍ بعذاب يقع في الآخرة، وهو قولهم ^(١) (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) . والسائل هو النضر بن الحارث بن كلدة - فيما رواه النسائي عن ابن عباس - وقد قيل: إن الموعود بوقوعه عذاب الدنيا . وقد قتل النضر ببدر، ففي الآية إخبار عن مغيب وقع مصداقه . و (لِلْكَافِرِينَ) صفة ثانية لـ (عذاب) ، أو صلة لـ (واقِع) . واللام للتعليل، أو بمعنى (على) . « لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ » أى رادّيه من جهته، لتعلق إرادته به . وهذا كقوله تعالى ^(٢) (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ) .

وقوله تعالى « ذِي الْمَعَارِجِ » قال الرازي: المعارج جمع معرج ، وهو المصعد . ومنه قوله تعالى ^(٣) (وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) . والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً :

أحدها - قال ابن عباس في رواية: أى ذى السموات . وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها .

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] .

(٢) [٢٢ / الحج / ٤٧] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٣٣] .

وثانيها - قال قتادة : ذى الفواضل والنعمة . وذلك لأن لأيديه ووجوده إنعامه مراتب ،
وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة .

وثالثها - أن المعارج هي الدرجات التي يعطيها أوليائه في الجنة . وقوله تعالى :
القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)

« تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »

قال ابن جرير^(١) : أى تصعد الملائكة والروح ، وهو جبريل ، إليه عز وجل ، في يوم
كان مقدار صعودهم ذلك ، في يوم لغيرهم من الخلق ، خمسين ألف سنة . وذلك أنها تصعد
من منتهى أسفل الأرض ، إلى منتهى أمره من فوق السموات السبع .

وقيل : بل معناه تعرج الملائكة والروح إليه في يوم يفرغ فيه من القضاء بين خلقه ،
كان قدر ذلك اليوم الذى فرغ فيه من القضاء بينهم قدر خمسين ألف سنة .

وقد قيل : إن (في يوم) متعلق بـ (واقع) . والمراد به يوم القيامة .
فمن ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة .
والمقدار المذكور إما حقيقى ، أو مجاز عن الاستطالة .

قال الشهاب : وهكذا زمان كل شدة ، كما قيل :

تَمْتَعُ بِأَيَّامِ السَّرُورِ ، فَإِنَّهَا قِصَارٌ ، وَأَيَّامُ الْغُمُومِ طَوَالُ

ونقل الرازى عن أبى مسلم أن هذا اليوم هو يوم الدنيا كلها ، من أول ما خلق الله إلى
آخر القضاء . فبين تعالى أنه لا بد في يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم ، وهذا اليوم مقدر
بخمسين ألف سنة . ثم لا يلزم على هذا أن يصير وقت القيامة معلوما ، لأننا لا ندرى كم
مضى وكم بقى . انتهى . وهو بعيد ، وهذه الآية كآية^(٢) (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنْ

(١) انظر الصفحة رقم ٧٠ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٣٢ / السجدة / ٥] .

السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجُئُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (ولا منافاة في التقدير ، لأن المعنى به الاستطالة ، لشدة على الكفار ، أو لكثرة ما فيه من الحالات والمحاسبات . والقرآن يفسر بعضه بعضاً - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

- [٥] (فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا)
- [٦] (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَبَعِيدًا)
- [٧] (وَنَزَلَهُ قَرِيبًا)
- [٨] (يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَمَلِ)
- [٩] (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ)
- [١٠] (وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا)
- [١١] (يُبْصَرُونَهُمْ ، يَوْدُ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِمْ بَيْنِيهِ)
- [١٢] (وَصَاحِبَتُهُ وَأَخِيهِ)
- [١٣] (وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ)
- [١٤] (وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ)

« فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » أى : على ما يقولون . ولا يضق صدرك ، فقد قرب الانتقام منهم .
 « إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ » أى : العذاب الدنيوى أو الآخروى « بَعِيدًا » أى : وقوعه ، لعدم إيمانهم بوعيده تعالى . « وَنَزَلَهُ قَرِيبًا » أى قرب الحضور . « يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَمَلِ » أى كالشيء المذاب ، أو دردى الزيت . (يوم) إما ظرف لـ (قريباً) ، أو لمحذوف .

« وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ » أى : كالصوف .
 « وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا » أى قريب قريباً عن شأنه ، لشغله بشأن نفسه .
 « يُبَصِّرُوهُمْ » أى يعرفون أقرباءهم ، ومع ذلك يفر بعضهم من بعض . وفيه تنبيه
 على أن المانع من هذا السؤال هو الاندهاش مما نزل ، لا احتجاب بعضهم من بعض .
 « يَوْمَ الْمُجْرِمِ » أى يتمنى الكافر « لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِمَنْيَةٍ » أى
 الذين هم محل شفقتهم .
 « وَصَحِجَتِهِ » أى التى هى أحب إليه « وَأَخِيهِ » أى الذى يستعين به فى النوائب .
 « وَفَصِيلَتِهِ » أى عشيرته « أَلَّتِي تَسْؤِيهِ » أى تضمه إليها عند الشدائد .
 « وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ » أى الافتداء . أو المذكور . أو من فى الأرض .
 عطف على (يفتدى) . و (ثم) للاستبعاد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْيِ)

[١٦] (نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى)

[١٧] (تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى)

[١٨] (وَجَمَعَ فَأَوْعَى)

« كَلَّا » أى لا يكون ذلك « إِنَّهَا » أى النار للموعود بها الجرم « لَأُظْيِ » أى لهب
 خالص . « نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى » أى الأطراف ، كاليد والرجل . أو جمع (شواة) وهى جلدة
 الرأس . « تَدْعُوا » أى إلى صليتها « مَنْ أَدْبَرَ » أى عن الحق « وَتَوَلَّى » أى عن الطاعة .
 « وَجَمَعَ » أى المال « فَأَوْعَى » أى جعله فى وعاء وكثره ، ومنع حق الله منه ، فلم يترك ،
 ولم ينفق فيما أوجب الله عليه إنفاقه فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا)

[٢٠] (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)

[٢١] (وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

« إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا » أى قليل الصبر ، شديد الحرص ، كما بيناه بقوله :
« إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ » أى الضرّ والبلاء « جَزُوعًا » أى كثير الجزع من قلة صبره . « وَإِذَا
مَسَّهُ الْخَيْرُ » أى كثر ماله ، وناله الغنى « مَنُوعًا » أى لما فى يده ، بخيل به ، لشدة حرصه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[٢٣] (الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[٢٤] (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ)

[٢٥] (لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[٢٦] (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ)

[٢٧] (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ)

[٢٨] (إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ)

[٢٩] (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

[٣٠] (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

[٣١] (فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[٣٢] (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

[٣٣] (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ)

[٣٤] (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

[٣٥] (أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ)

« إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ » أى مقيمون ، لا يضيعون منها شيئاً . « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » أى المتعفف الذى أدبرت عنه الدنيا ، فلا يسأل الناس . وقيل : الذى لا ينمى له مال . وقيل : المصاب ثمره ، أخذاً من قول أصحاب الجنة فى السورة قبل ^(١) (بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ) . واللفظ أعم من ذلك كله .

وقد روى ابن جرير عن ابن عمر أنه سئل عن الحق المعلوم أهو الزكاة ؟ فقال : إن عليك حقوقاً سوى ذلك .

ومثله عن ابن عباس قال : هو سوى الصدقة ، يصل بها رَحماً ، أو يقرى بها ضعيفاً ، أو يحمل بها كلاً ، أو يعين بها محروماً .

وعن الشعبي : أن فى المال حقاً سوى الزكاة .

« وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الدِّينِ » أى الجزاء . « وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » قال ابن جرير ^(٢) : أى وَجِلُونَ أن يعذبهم فى الآخرة ، فهم من خشية ذلك لا يضيعون له فرضاً ، ولا يتعدون له حدّاً . « إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ » أى أن ينال من عصاه ، وخالف أمره . « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ » أى لعلبة ملسكة الصبر ،

(١) [٦٨ / القلم / ٢٧] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٨٣ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

وامتلاك ناصيته . « إِيَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ أُبْتَغَىٰ وَرَأَىٰ ذَٰلِكَ » قال ابن جرير^(١) : أى التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته ، أو ملك يمينه . . « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » أى الذين عدوا ما أحل الله لهم ، إلى ما حرمه عليهم . « وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » قال ابن جرير^(١) : أى لأمانات الله التى ائتمنهم عليها من فرائضه ، وأمانات عباده التى ائتمنوا عليها ، وعهوده التى أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم ، وعهود عباده التى أعطاهم ، على ما عقده لهم على نفسه راعون ، يرقبون ذلك ويحفظونه فلا يضيعونه . « وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ » أى لا يكتمون ما استشهدوا عليه ، ولكنهم يقومون بأدائها حيث يلزمهم أداؤها ، غير مغيرة ولا مبدلة . « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى لا يضيعون لها ميقاتاً ولا حداً . قيل : الحفظ عن الضياع ، استعير للإتمام والتكميل للأركان والهيئات . ولذا قال القاضى : وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخراً ، باعتبارين : للدلالة على فضلها ، وإناعتها على غيرها . « أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ » أى بثواب الله تعالى ، لاتصافهم بمكارم الأخلاق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ)

[٣٧] (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ)

[٣٨] (أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ)

[٣٩] (كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّمَّ يَعْلَمُونَ)

«فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ» أى مسرعين للحضور ، ليظفروا بما يتخذونه هزواً .

وعن ابن زيد : (المهطع) الذى لا يطرف .

(١) انظر الصفحة رقم ٨٤ من الجزء التاسع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« عَنْ اليمينِ وَعَنْ الشِّمَالِ عَزِينَ » أى متفرقين حلقاً ومجالس ، جماعة جماعة ، معرضين عنك ، وعن كتاب الله . « أَبْطَمَعُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ » أى ولم يتصف بصفات أهلها المنوّه بها قبل . « كَلَّا » أى لا يكون ذلك ، لأنه طمع في غير مطعم . « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ » أى من النطف . يعنى : ومن قدر على ذلك ، فلا يعجزه إهلاكمهم ، فليحذروا عاقبة البغى والفساد . ولذا قال :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ)

[٤١] (عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ)

[٤٢] (فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ)

[٤٣] (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ)

[٤٤] (خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ ، ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ)

« فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ » يعنى مشرق كل يوم من السنة ومغربه ، أو مشرق كل كوكب ومغربه ، أو الأقطار التى تشرق فيها الشمس وتغرب . « إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » أى بمغلوبين ، إن أردنا ذلك . « فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ » أى أخذهم فيه وهلاكهم . « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ » أى يسرعون . و (النصب) الضم المنسوب للعبادة ، أو العلم المنسوب على الطريق ليهتدى به السالك ، أو ما ينصب علامة لنزول الملك وسيره . فهم يسرعون إسراع عبدة الأصنام نحو صنمهم ، أو إسراع من ضل عن الطريق إلى أعلامها . أو إسراع الجفند إلى راية الأمير . « خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ » أى من الخزى والهوان . « تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ » أى تغشاهم ذلة من هول ملاحق بهم . « ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ » أى بأنهم ملاقوه .